الدراسات العربية والإسلامية في اسكوتلندا

ترجمة وتحليل الدكتور الحاج مير

ان تدشين اول كرسي للدراسات العربية الاسلامية في اسكوتلندا [1]، كان فرصة مناسبة للاطلاع على ما سبق للاسكوتلانديين ان انجزوه في هذا المضمار وفي نفس الوقت تقديرا للآمال المنوطة بهذه الدراسات في المستقبل . وسأبين هنا كيف ان الدراسات العربية التي قام بها الاسكوتلنديون ترجع الى عهد يتوغل في القدم حتى يكاد يتوارى في ضباب الاساطير ، ولذا فلا يمكننا ان ندعي وجود اية صلة مباشرة مع محمد نفسه . وعلى كل فهنالك مصدر يحيط به الالتباس ويندرنا بتحويل الرسول الى بطل قومي اسكوتلندي .

وكان مؤلفو الكتب التاريخية المقررة للمدارس الابتدائية في اسكوتلندا قد سبقوا كليات التاريخ في الجامعات بتوسيعهم افق نظرتهم في اوربا في غياهب القرون الخوالي وربما سمعوا النقاش الذي احتدم سنوات حول قوانين حمورابي .

ان المصدر الحقيقي للارتباك الذي يهمنا اليوم هو ان الفصل الذي يعالج « كولومبا في يونا » في هذه الكتب المقررة يمهد الى ان يتبعه فصل عن محمد واصل الاسلام . وقد ظهر الجواب عن هذا فعلا منذ بضع سنين في مدرسة بمدينة ادنبره Edinburgh

يقول : «كان محمد مسؤولا عن انتشار المسيحية في انجلترا ، اذ كان عليه ان يهاجر من بلده الاصلي لان الناس لم يصدقوه . وقد اصطحب معه «بابا» كان اسمه فريفوري . وقد نزلا في مكان يدعى اليوم « يونا Iona » حيث اخذ يعظ الشعب ثم انتقل الى انجلترا ليبشر بين الناس هنالك ، وقد استقبلوه قبولا حسنا » . واذا ما طرحنا الغموض جانبا ، فان اول مستشرق اسكوتلندي كان له شأن يذكر هو : ميخائيل سكوت Michael Scot الذي تجلى نشاطه حوالي عام 1200 م ولكنه كان قد اخذ او خيل للناس انه قد انغمر وياللاسف باعمال الشعوذة والسحر فاصبحت له شهرة واسعة كساحر حتى انه حظي بمكانة رفيعة في جحيم دانتي ، والسير والترسكوت استخدم ـ لحد بعيد ـ اسطورة « قصيدة المنشد الاخير » حيث يقول : لقد شق جبال ايلدون Eildon الى ثلاث وشكم عنان نهر « التويد Tweed بصخرة » ، وهنالك ادعاء اقل مبالغة يقول بانه « اقام لاصدقائه وليمة احضر اطباقها بواسطة ارواح من مطابخ فرنسا واسبانيا الملكية » الامر الذي يعتبر بسيطا وليس بحاجة الى تفسير عن طريق الارواح . وفي القرن الثامن عشر، كانت اسبانيا الاسلامية متقدمة جدا على اوروبا الغربية : في فنون العيش الرغد وخاصة في ميدان التانق في المآكل والمشرب ، ومما لا شك فيه ان « ميخائيل سكوت » كان قد احضر معه من اسبانيا بعض الوصفات لاكلات جديدة غير معروفة بتاتا كما يفعل اليوم السياح المعاصرون عندما يفكرون بمفاجاة اصدقائهم باكلة Gazpacho الغاز باخو »

والحقيقة المعقولة عن سيرة «ميخائيل سكوت» هي انه درس العربية في طليطلة حيث التقى بفلاسفة مسلمين ويهود يتكلمون العربية فاصدر مع بعض

---

[1] المقال للسيد W. Montgomery Watt استاذ العربية والدراسات الاسلامية في جامعة ادنبره (سكوتلندا)

الذين تعاونوا معه الترجمات اللاتينية الاولى لبعض مؤلفات ارسطو، والتعليقات العربية التي كانت قد وضعت حولها .

ومنذ ذاك ولبضع قرون اخرى لم يعد هنالك اي اهتمام اسكوتلندي بالعربية وذلك اما بسبب التخوف من خطر التورط في الفنون السوداء (السحر والشعوذة) واما لاسباب اكثر تفاهة ، وربما كان رئيس الاساقفة لود قد تابع امر انشاء كرسي للعربية في اوكسفورد وآخر في ادنبره لولا ان جيني فيدس Jenny Geddes كان قد رفض ذلك الكرسي احتجاجا على طقوسه الدينية اسكندر روس Alexander Ross وبعد هذا بفترة قصيرة اي في عام 1649 كان هنالك عالم اسكوتلندي يدعى اسكندر روس قد اخذ يهتم بالدين الاسلامي حتى قام بترجمة القرءان من الفرنسية الى الانجليزية ولكن الشك في كل ما هو اسلامي (الذي ورثه الاوربيون بتأثير الدعاية التي اثارتها الحروب الصليبية) كان لا يزال قويا مما جعل روس يفكر بانه من الاصوب ان يضع لترجمته عنوانا سهلا : وهو « تحذير ضروري لاولئك الذين يرغبون في معرفة هل هنالك فائدة او خطر في قراءة القرءان . وقد تحدث في افتتاحية هذا المقال عن الرجل العربي العظيم ، اي محمد الذي وصل بعد مرور الف سنة — عن طريق فرنسا — الى انجلترا ، وعن قرءانه المشحون بالاخطاء والذى هو وليد مشوه كوالديه ومفعم بالهرطقات .

ومن الممكن ان يكون الكثير من هذا القدح يهدف لاخماد الانتقادات العدائية . ان نظرة روس للمسلمين كانت نظرة احترام وقد سبق بيير بيل Pierre Bayle صاحب « القاموس Dictionary الشهير باستخدامه فضائل الاسلام كمعول يشهر به نقائص المسيحية المعاصرة . وكما اننا عند قراءتنا للقرءان ، نجد الكثير من التشويهات نقع فيه ايضا على بعض الجواهر من الفضائل المسيحية . والواقع ان المسيحيين لو ارادوا قراءته وملاحظة شرائع المسلمين وسيرهم بجد ، لخجلوا عندما يطلعون على حماس المسلمين في اعمال الورع والتقوى والاحسان وعلى ما يتصفون به من الاخلاص والنظافة والوقار في مساجدهم وكذلك مدى طاعتهم لشيوخهم حتى ان التركي العظيم اي السلطان نفسه، لا يقوم باي اجراء قبل مشورة المفتي ، وكذلك كيف ان المسلمين حريصون على مراعاة ساعات الصلاة خمس مرات في اليوم حيثما كانوا وكيفما كانوا منهمكين في العمل . واذا ما لاحظنا استقامتهم وعفتهم وطبعهم للنفس وغيرها من الفضائل الخلقية اعترانا الخجل بموقفنا الفاتر من الاخلاص والبر ومن تعسفنا وافراطنا في السكر والدعارة والجور . ومما لا شك فيه، ان اخلاصهم وتقواهم واعمال الرحمة بينهم من الاسباب الاصلية لعظمة الاسلام في حين ان اهمالنا للدين وفجورنا في الحديث ، عقبة كاداء في سبيل ظهور المسيحية . وهنالك آراء كثيرة من هذا النوع في كتاب آخر ويدعى بالاغريقية Pansebaia اي راي في جميع كتب العالم الدينية ، وضعه نفس المؤلف اثناء مناقشته لاسباب انتشار الاسلام . ويقال بان هذا الكتاب كان اول مؤلف ظهر في اوروبا حول الديانات المقارنة . وقد ترجم الى الالمانية ومن النقاط الهامة فيه ان المؤلف يدرج الاسلام — ويسميه « المحمدية » — مع المسيحية تحت عنوان «اديان اوروبا » . لكن هذا لا يثير دهشتنا بالطبع عندما نتذكر ان الكتاب كان قد نشر عام 1653 اي عندما كانت الدولة العثمانية في اوروبا الوسطى في اوج عظمتها .

وبعد مرور قرنين تقريبا على ظهور «البانسيبايا» ، كانت مشاطرة الاسكوتلنديين قليلة في تقدم الدراسات الاسلامية البطيء بين علماء الغرب المسيحي، وخلال هذه الفترة كان قد طرأ تقدم في جمع المعلومات الصحيحة حول تاريخ وعادات ومؤسسات المسلمين . لكن هنالك صورة مشوهة عن الاسلام وعن اخلاق مؤسسيه ، كان قد توارثها الغربيون عن القرون الوسطى ، وهذه الصورة ولدت اثرا كان من الصعب التخلص منه . وفي عام 1697 وضع السيد همفري بريدو اوف نورويش Humphrey Prideaux of Norwich كتابا قيما عن محمد بعنوان « طبيعة التدجيل الواضحة في حياة محمد » . وبالرغم عن صبغة الكتاب العلمية فقد كان مقدما سبابا . وكان من المنتظر ان يكون راي مفكر حر منذ ادوارد غيبون Gibbon في غير مصلحة الرسول فهو يرى ان الرسول في تصرفه الشخصي قد انغمس في الشهوات كانسان واساء استعمال ادعاءاته كرسول » وان مفاهيم كهذه لترجع الى عهد كانت المسيحية فيه تشعر بانها مهددة من قبل الاسلام حربيا وروحيا كما ظهر ذلك مفصلا في كتاب نشر منذ بضع سنين في مطبعة جامعة ادنبره .

وكان الاسلام اذ ذاك مهيبا جدا الامر الذى جعل الصورة المشوهة عنه تتركز فى مخيلة الغربيين حتى انهم لم ينجوا من غوائلها تماما الى الآن .

ولكن تقدما عظيما كان قد وقع حينذاك فى تصحيح التشويهات وذلك على يد الكاتب الاسكتلندي الشهير طوماس كارليل Thomas Carlyle وكارليل هذا لم يكن مستشرقا فى اللغة العربية او الاسلاميات .وكان قد القى فى الثاني من شهر ماي 1830 ، سلسلة من المحاضرات عن « الابطال وعبادة البطولة فى التاريخ » فكان من نصيب الرسول والاسلام المحاضرة الثانية بعنوان : « البطل كنبي » وكان كارليل قد قرا كتابا او اثنين من الكتب العلمية الرزينة التى استطاع الحصول عليها فى اللغتين الانجليزية والالمانية . وقبل ذلك طالع القرءان عن طريق ترجمة جورج سال George Sale محاولا ان يجدد لنفسه تجربة الرسول الدينية الاساسية غير انه لم يجد القرءان سهل القراءة ، وقد عبر عن ذلك بقوله : « يجب ان اصرح بان قراءته تتطلب مني جهودا عظيمة . فهو خليط مشوش وغير منتظم فيه تكرار لا نهاية له كما انه طويل النفس ومبهم وليس هنالك ما يدفع بالاوربي لقراءته سوى الشعور بالواجب . وانا لنجد فيه كما يمكننا ان نجد فى اي وثيقة حكومية كميات لا تقرا من سقط المتاع من شانها ان تجعلنا ناخذ بعض اللمحات عن انسان عظيم .

ومع ذلك فان هذه المحاضرة كان لها قيمتها لان صاحبها كارليل هو الرجل الاول ــ من ذوي الشهرة العظيمة فى اوربا ــ الذي كانت له الجراة على التصريح علنا وبصورة مؤكدة بانه يعتقد بان محمدا كان مخلصا كما ان اشخاصا امثال ليبنز Leibniz وكانت Kant وغوته Goethe كانوا على استعداد للموافقة على ان الاسلام كان تعبيرا للدين الصحيح وكارليل كان يتاثر بغوته Goethe فى هذه النقطة اذ اشار اليه مرتين فى المحاضرة .

وعلى كل فان مساهمة كارليل الاساسية كانت عبارة عن تعبير تخيلي لتجربة الرسول الروحية وعلى حد تعبيره اي كارليل « تجربة هذا القلب العظيم المتوقد الذي يغلي ويخطف كانون عظيم من الافكار . ان اعادة بناء تجربة الرسول لم تكن ولا شك منطبقة واوصاف المنظر العربي الخلقي (الوضع العربي اذ ذاك) .

ومن بعض الجهات يمكننا القول بان محمدا كان العماد الذى ترتكز عليه آراء كارليل ، وهكذا فان فيه المعلومات المفصلة الكافية التي تجعلنا ننظر اليه كاحتجاج صريح ضد تشويه صفة الرسول كما هي فى الصورة التقليدية ، وهي ولا شك مساهمة مخلصة فى فهم شخصية الرسول والاسلام فهما اكثر موضوعية .

وهكذا نراه يقول عن الرسول : فهو ليس باصدق الرسل طبعا لكني اعترف به كنبي صادق

وعندما اشار كارليل الى اسطورة الحمامة التى دربها محمد لتلتقط الحب من اذنه والتى كانت ملاكا يملي عليه قال :

لقد حان الوقت لمحو كل هذا اذ ان الكلمة التى القاها هذا الرجل قد جذبت الى الاسلام مائة وثمانين مليونا من البشر فى بحر الاثني عشر قرنا ، وان عددا اكثر من المخلوقات تدكيهم العقيدة فى كلمة محمد اكثر من اي كلمة اخرى مهما كانت. ولذلك لا يمكننا ان نعتبر ان محمدا هذا كان تافها وممثلا مسرحيا ومخططا طموحا .

والمسالة الصعبة التي القاها لم تكن تافهة ايضا بل كانت صوتا جديا ومختارا ينبثق من الاعماق المجهولة، ككتلة نارية من الحياة انطلقت من جوف الطبيعة نفسها .

ان هذا التقدير الايجابي الذى اظهره كارليل لمحمد ، نجد له صدى فى تقدير ايجابي للمسلمين المعاصرين من قبل شخص نظر الى الاسلام من اسوا ناحية وهذا الشخص هو دافيد لفنستون .

فقد كان يعرف ابعاد ما كانت تنطوي عليه تجارة الرقيق وعرفها كصنيع رجال من العرب بقطع النظر عن صفتهم الجنسية الحقيقية والكلمات الاخيرة التى دونها فى يومياته هي الكلمات المنقوشة على ضريحه فى كنيسة وستمنستر وهي :

« كل ما يمكن ان اضيفه فى وحدتي هو اللهم ارسل شآبيب رحمتك الواسعة على كل انسان امريكيا كان او انجليزيا او تركيا (مسلما) ممن يساعد على تضميد الجرح المفتوح فى جثمان هذا العالم » .

وهذه هي العادة القديمة المتبعة التى كانت تستعمل فيها لفظة «تركي» بمعنى «مسلم» وعلى

ضوء ما سبق نرى كيف ان ليفنستون كان يقدر القيم الاسلامية حتى انه كان يعتقد بامكانية التعاون بين المسيحيين والمسلمين للقضاء على الرق .

ومن الطبيعي ان ننتقل من ليفنستون الى المبشرين الذين اضحى الكثير منهم ضليعا بالعربية والعلوم الاسلامية فنذكر منهم :

1 ـ جون هوغ John Hogg
(1886 ـ 1833)

2 ـ ر. ي. غاردنر R. W. Gardner

3 ـ اسكندر باترسون Alexander Paterson
(1933 ـ 1863)

اما هوغ فكان صبيا « فحاما » من مقاطعة است لوثيان في «اسكوتلندا» ، ممن قاموا بعمل عظيم لحركة التبشير البرسيتريانية الامريكية في مصر العليا . اما الآخران فقد بدءا عملهما في منطقة « الشيخ عثمان » التي سياتي ذكرها فيما بعد ، وفيما بعد اصبح باترسون مسؤولا عن انشاء مستشفى في مدينة الخليل بفلسطين : وبامكاننا القول من جهة اخرى بأن هنالك اثنين من المبشرين قد اجتازا عتبة العلم في الدراسات الاسلامية هما :

1 ـ تاميل غيردنير Temple Gairdner
(1928 ـ 1873)

2 ـ جون كيث فالكونر John Keith-Falconer
(1887 ـ 1856)

وكان اصغرهما تاميل غيردنر ـ وهو ابن استاذ الطب في جامعة فلاسيكو ـ قد كرس حياته لاعمال التبشير في القاهرة ، وقد بدا عمله بداية طيبة بالكتابيين الذين وضعهما وبمقال في مجلة « الاسلام » الالمانية مما يبشر بمستقبل زاهر لكن متطلبات عمله الاداري ووفاته وهو في سن الرابعة والخمسين حالت دون تضلعه العلمي من ان يثمر .

واشهر المبشرين هو النبيل جون كيت فالكونر وهو ايضا اكثرهم تنوعا ، وفي ايام دراسته في كلية هارو (Harrow) اصبح شغوفا بما كان يعرف اذ ذاك بـ « رياضة السير على الدراجة » ، حتى انه كسب في ايام دراسته في جامعة كامبردج عدة مسابقات وانتصر على بطل العالم الممتهن بباع واحد او اثنين . وفي كامبردج درس اللاهوت ثم اللغات السامية لكنه اخذ ينجذب تدريجيا الى اعمال التبشير . وتحت رعاية «كنيسة اسكوتلندا الحرة» اخذ يهيىء على نفقته التدابير الاولية للقيام برسالية تبشيرية في جنوب بلاد العرب حيث اقام بعض المنشآت في بلدة «الشيخ عثمان» قرب عدن ، لكنه توفي بتأثير جرثومة مبهمة وهو لا يزال في سن الواحدة والثلاثين ، وكان قبل وفاته قد نشر كتابا علميا وتم تعيينه ليملأ « كرسي اللورد المونر » للعربية في كامبردج .

وكان هذا الكرسي الذي الغي فيما بعد ، لا يتطلب من صاحبه سوى القاء محاضرة واحدة في بحر كل عام دراسي ، وقد ادرك كيت فالكونر بانه اذا ما اختار اوقات عمله بعناية يصبح بامكانه اذا اقتضى الامر ان يقضي سنة وثلاثة ارباع السنة بصورة متواصلة في جنوب بلاد العرب دون ان يقصر بالواجبات التي يقتضيها كرسيه .

ومما صرح به آنذاك عندما كان يتفرس في زوجته العربية : « على كتب النحو العربية ان تكون متينة التجليد لان متعلمي العربية سيجدون انفسهم مضطرين الى قذفها بشدة على الارض وقد تحول جون كين فالكونر من اعمال التبشير الى العمل الاكاديمي وهي الفترة التي ندعوها في تاريخ الدراسات العربية في كامبردج ب « الفترة الاسكوتلندية للدراسات العربية » ومن اساتذة كمبردج الاولين في هذا الباب وليم رايت William Wright (1889 ـ 1830)

فقد كان والده ضابطا في خدمة « شركة الهند الشرقية » وامه ابنة حاكم هولندي للسينغال ، وبتشجيع والدته التي كانت هي نفسها مستشرقة قديرة تخصص « رايت » في اللغات السامية في سنت اندرو ثم تابع دراسته في جامعتي هال Halle وبعد اشتغاله كاستاذ في لندن London وليبزيغ Leipzig ودبلن Dublin ومراكز اخرى اصبح عام 1870 استاذ العربية للسير طوماس آدام في كامبردج . وظل في هذا الكرسي 17 عاما بلغت اثناءها شهرته ذروة لم يصلها احد بعده . ومع انه نشر عدة نصوص عربية كانت تعتبر على جانب عظيم من الاهمية اذ ذاك ، فانا لا نزال نذكره اليوم بفضل كتابه في النحو العربي الذي لا يزال متعة في حياة الطالب . والذي هو «مترجم عن كتاب كاسباري Caspari الالماني مع كثير من الاضافات والتصحيحات » ولكنه في الواقع من انتاجه ، وبفضله

اخذ الطالب ينتعش من صدمة الفوضى فى خضم الالفاظ اللغوية .

خلف رايت فى كرسيه ، اسكوتلندي آخر هو « وليم روبرتسون سميث » William Robertson Smith (1846 ـ 1894) الذي كان قد تبوأ فى الماضي روبرتسون سميث» الذى كان قد تبوأ فى الماضي كرسي اللورد المونر Almoner لفترة وجيزة ، ومع ان مدة خدمته كانت قصيرة لكنها كانت مثيرة فقد كان روبرستون ابن قسيس فى « الكنيسة الحرة كما كان هو نفسه قد تثقف ليصبح قسيسا ، وقد قضى سميث سنتين استاذا مساعدا فى الفلسفة الطبيعية فى جامعة ادنبره قبل ان يصبح استاذا للغات الشرقية وتفسير العهد القديم فى جامعته ابرديـن Aberdeen وهو لا يزال فى الرابعة والعشرين من عمره .

وكان ذلك سنتي 1870 و 1881 حيث عزل من كرسيه لان آراء بشان بعض نقط العهد القديم كانت قد اعتبرت الحادية .وهناك ادركت كلا من لندن وكامبردج عملاقية هذا العالم الذى طرد بهذه الصوره من سكوتلاندا فاتيحت له الفرصة ليقضي اكثرية ما تبقى من حياته فى المدينة الاخيرة فى كامبردج حتى وفاته فى عام 1894 وهو لا يزال فى سن الثامنة والاربعين . واحسن ما يعرف به هذا المستشرق فى ميدان اللغة العربية المحفى هو كتابه : « القرابة والزواج فى بلاد العرب القديمة » الذى صدر فى عام 1885 ويعتبر كتابا رائدا يعتمد فيه على المصادر العربية فى موضوع نسميه اليوم ب « الانثروبولوجيا الاجتماعية » اي علم الانسان الاجتماعي .

ان طلاب اللغة التركية كانوا دائما اقل عددا من طلاب اللغة العربية ولم يشتهر فى هذا الميدان سوى اسكوتلندي واحد هو الياس جون ويلكنسون جب Elias John Willkonson Gibb الذي ولد في غلاسقو عام 1857 وتثقف فيها . وعن طريق « الف ليلة وليلة » وقع تحت سحر الشرق . وفى سن الخامسة والعشرين نشر مجلدا بعنوان « القصائد العثمانية » . وقبل وفاته المبكر عام 1901 كان قد اكمل ـ علاوة على نشره كتبا اخرى ـ مؤلفه « تاريخ الشعر العثماني » الذى ينم عن ثقافة عميقة مع تقدير لفن الجمال . ولسخرية القدر اصبح اسمه معروفا بسبب وفاته المبكر فقط الى ان امتد وشاع الى ما وراء الحلقة المحدودة من المخلصين للشعر العثماني ، لكن امه اوقفت باسمه منحة مالية تعرف ب « ذكرى جب » وهي جمعية كانت قد نشرت ما يقرب من خمسين مؤلفا هاما فى اللغات العربية والفارسية والتركية ، ولا تزال مستمرة فى عملها .

اما مستشرق القرن التاسع عشر الاسكوتلندي الذى ذاع صيته مع انه لم يكن استاذا للعربية فهو السير وليم الذى بلغ مستوى اكاديميا ارفع من ذلك بسبب انه كان عميدا لجامعة ادنبره لمدة 18 سنة (اي ما بين 1885 ، 1903).

وقد باشر السير وليم موير Sir William Muir فى اوقات فراغه ـ كموظف فى الخدمة المدنية فى الهند كتابة مقالات عن حياة محمد اخذت تظهر منذ عام 1855 فى « مجلة كالكتا Calcutta Review ثم تكاثرت حتى كونت اربعة مجلدات نشرت فى لندن امابين عامي 1858 ـ 1861) ، وقد نقح هذا الكتاب في البدء مؤلفه ثم عقب عليه T. H. Weir of Glascow وفيما بعد ظهرت له ايضا طبعة اخيرة تقع فى مجلد واحد . وللاستاذ موير مؤلفات اخرى زادت فى شهرته كما كان يعمل فى نفس الوقت ـ وبقدر المستطاع ـ على تشجيع قضية جمعيات التبشير المسيحي . وكعميد لجامعة ادنبره يظهر بانه كان قد مكن لمكتبتها من اقتناء جميع المؤلفات الخاصة بالمواضيع الاسلامية التى نشرت اذ ذاك فى اوروبا كما قدم فيما بعد كتبه المختصة بالاسلاميات وغيرها من المواضيع لنفس المكتبة التى تكون فيها ما هو معروف ب « مجموعة موير »

ومنذ 12 عاما اطلقت الجامعة اسم «معهد وليم موير» على البناية التى تضم دوائر الدراسات الشرقية . وكانت من عادة السيد وليم موير ان يمتطي فى كل صباح صهوة حصانه الابلق ليصل الى الوادي القديم ثم يعود ، الامر الذى كان يضفي على جو الجامعة لونا شرقيا زاهيا وبراقا .

وبعد هذه الفترة بقليل ظهر اسكوتلندي آخر يدعى « دونكان بلاك مكدونالد » Duncan Black Macdonald اصبح احد زعماء الاختصاصيين بالدراسات الاسلامية فى العالم وبقي

لبضعة اعوام استاذا في مدرسة المعلمين في هارتفورد من اعمال كونكاستكت والناشر للمجلة الربعية المعروفة باسم: «العالم الاسلامي The Moslem World واصبح فيما بعد الناشر المساعد في عمل علمي عظيم هو « الموسوعة الاسلامية » التي ساهم معه فيها العالم الفرنسي الشهير لويس ماسينيون المتوفى منذ سبعة اعوام . وبعد ان بلغ سن الثمانين وبموجب تقاليد الجامعات الاسكوتلندية كانت العربية تدرس على الاغلب كموضوع ملحق للعبرية كما ان كثيرا من اساتذة العبرية كانوا هم ايضا اساتذة للعربية برغم انهم لم ينشروا اي شيء في هذا المضمار . ولكن هنالك استثناء يستحق الذكر هو الاستاذ : وليم بارون ستيفنسون William Baron Stevenson الذي عمل مدة طويلة كاستاذ في جامعة غلاسكو . ولا يزال كتابه « الصليبيون في الشرق » الذي ظهر في عام 1907 واعتمد فيه على مصادر عربية يحتفظ بقيمته العلمية حتى الآن . وقد كتب ايضا عن « المفاتن الاسلامية » ولا يعني بذلك بالطبع مفاتن الجنس اللطيف الذي يضفي النقاب عليه رونقا خاصا ساحرا . واللغة العربية اصبحت تدرس الآن مستقلة عن العبرانية في الجامعات الاسكوتلندية كجامعة غلاسكو ، سن اندروز وابردين ، وكان لجامعة ادنبره كرسيها المستقل في اللغة العربية منذ 1913 اي منذ اكثر من نصف قرن وتذكر ممن اعتلى كرسي هذه المادة الاستاذ تريتون في هليكره ولندن ، وكان اول الاساتذة المستقلين في ادنبره .

ادوارد روبرتسون Edward Robertson الذي غادر ادنبره عام 1921 ليتسنم منصبا في « المتحف البريطاني » . وقد خلفه في الجامعة ، رشارد بل Richard Bell الذي كان يقال عنه بانه قد ينهج منهج كارليل لا في خصوص مدح الاسلام فقط بل لانه كان ايضا قبل تعيينه في جامعة ادنبره قسا في وامفري Wamphray التي تقع قريبا جدا من مسقط راس كارليل مما ساعده على ان يكون دعامة قوية لجمعية كارليل في ادنبره . وعن طريق دراساته للقرآن كون بل Bell لنفسه شهرة عالمية . وكان غرضه ان يطبق على القرآن اساليب النقد العالي التي طبقت على التوراة وذلك ليثبت (فيما يزعم) كيف ان الآيات القصيرة التي تكون نصه الاصلي قد طرا عليها تغيير جعلها ترتبط ببعضها لتكون النص الذي بين ايدينا . ان الترجمة في حد ذاتها عملية مضنية تتطلب عناية خاصة كما انها لا تزال حتى الآن غير منسقة من قبل العلماء وستبقى في المستقبل بحاجة الى دراسة لتستغرق عدة اعوام اخرى . وقد سبق هذا العمل محاضرات Gunning التي نشرت بعنوان « اصل الاسلام في بيئته المسيحية » عام 1926 . وله كتاب آخر طبع بعد وفاته بعنوان « التعريف بالقرءان » (1953) .

وكان شارل بل رجلا متواضعا حتى ان القليل من زملائه في ادنبره كان قد ادرك بانه كان في موضوعه عملاقا لكن آراء العلماء بالطبع ترى هذه الامور من زاوية مختلفة . واني لا ازال اتذكر السيدة بل وهي تتحدث بعاطفة قوية عن « تلك الاعوام العشرة الغظيمة » التي قضتها مع زوجها وهو غارق في عملية الترجمة هذه ، لكن صدى هذه الشكوى سيبقى قائما عبر القرون . واسمحوا ان اقص عليكم بهذه المناسبة ان هنالك عالما مسلما عاش في القرن الثامن اعتاد عندما يكون في البيت ان يضع كتبه حوله ويستغرق فيها لدرجة كانت تجعله ينسى كل ما له صلة بهذا العالم . وكانت له زوجة واحدة في حين انه كمسلم يجوز له شرعا ان يتزوج من اربعة ، لكن هذه الزوجة المسكينة خلدت ذكراه عندما ابدت اذ ذاك هذه الملاحظة :

« يا لهذه الكتب ! فهي بالنسبة لي اقبح من ثلاث ضرات ! »

وهنالك حقيقة اخرى حول ادنبره يمكن الاشارة اليها باختصار وتلك هي ان عميد الدراسات الاسلامية في العالم الناطق بالانجليزية ، السيد هاملتون جب، الذي عمل استاذا في اوكسفورد ويعمل الآن في هارفارد بامريكا كان قد بدا دراسته « العربية » هنا اي في ادنبره وتخرج منها بدرجة شرف .

والآن اعتقد ان ما ذكرناه فيه الكفاية عن الماضي فاسمحوا لي ان انتقل فيما تبقى من هذه المحاضرة الى الحاضر والمستقبل . واول ما يخطر على بالي « ماذا سيكون مصير الدراسات العربية والاسلامية اليوم وفي ما تبقى من هذا العصر ؟ »

ففي عصر الطائرة النفاثة ، نحن بعيدون جدا عن حصان السيد وليم موير الابلق كما هو بعيد عن شعوذة ميخائيل سكوت . لهذا فان الجهود الاكاديمية التي تطلبتها الطائرة النفاثة قد اخذت تحظى الآن بالتقدير وان الخبراء في الشؤون الداخلية والامور العسكرية يؤكدون بان الضرورة

الاستراتيجية كانت تتطلب ان يكون في البلاد اناس مزودون بمعرفة جيدة للغات الاسيوية والافريقية اكثر مما كان لدينا اذ ذاك . وعلى ضوء ذلك تم تعيين لجنة سكاربرو (Scarbrough) التي ادى تقريرها الى توسيع في دراسات اللغات الشرقية في انحاء بريطانيا بعد الحرب وكان نصيب جامعة ادنبره من هذا التوسيع انها اضافت الى اللغات التي كانت تدرس الفارسية والتركية والاردية كما وسعت دائرة اللغة العربية والدراسات الاسلامية علاوة على انشاء دورة دراسية للحصول على « دكتوراه » في التاريخ الاسلامي .

وهنالك مرحلة اخرى من التوسيع استهلت بتقرير لجنة هايتر Hayter عام 1961 ، يتصل اكثره بجامعة ادنبره حيث تم انشاء مركز للدراسات الافريقية يبشر باهمية قصوى للمستقبل .

وبالاضافة الى شمال افريقيا الممتد من مصر الى المغرب والذي هو عربي ومسلم تماما ، فان العربية منتشرة في شرقي افريقيا وغربها .

ومن المعروف اليوم ان هنالك في افريقيا الغربية بضعة آلاف من المخطوطات والوثائق العربية لا تزال غير منسقة كما ان الاسلام اخذ ينتشر في القسم الجنوبي من افريقيا الصحراوية بخطوات اسرع من المسيحية .

وقبل عام او عامين ، كان ما يقرب من ثلثي رؤساء الدول المستقلة في افريقيا مسلما ، وعند نهاية القرن ، من المحتمل ان يصبح الاسلام الدين السائد في افريقيا . ولهذا فان من المنتظر ان يكون مسرح التطورات الهامة في الحظيرة الاسلامية في بحر السنوات العشرة القادمة ، في افريقيا .

ولبواعث من هذا القبيل ، من المحتمل ان يكون للجمع بين الدائرة العربية ومركز الدراسات الافريقية اثره في زيادة ثمار الاستشراق في المستقبل ثم ان عدد ما وراء البحار في بريطانيا آخذ في الازدياد بصورة مستمرة كما يزداد ايضا عدد المستوطنين غير الاوروبيين القادمين من مختلف انحاء الكومونولث البريطاني .

وان تبادل الاساتذة والعلماء اصبح امرا جاريا به العمل كما اصبح هنالك استعداد عظيم بين سواد الشعب لقضاء بضع سنين في بلد اجنبي .

وعلى كل فالمهم ان تؤخذ هذه الحقائق بعين الاعتبار . ويمكن ان يكون من الصحيح ان العالم اصبح يتكون حتى عام 1940 من بضع وحدات حضارية اهمها على راي الاستاذ توينبي هي :

1 ـ الحضارة الغربية اي (الاوروبية ـ الامريكية)

2 ـ المسيحية الارثوذكسية اي (جنوب شرقي اوروبا وروسيا)

3 ـ الهندوسية

4 ـ الشرق اقصوية

5 ـ الاسلامية المنتشرة من غرب افريقيا عبر الشرق الاوسط حتى ماليزيا واندونيسيا

وهنالك مناطق تتداخل فيها حضارتان بسبب الاحتكاك بين هذه الحضارات وان كان هذا الاحتكاك حيث تحتفظ كل واحدة منها بخصائصها . والاستثناء الوحيد هنا هو ان الحضارة الغربية او الاورو ـ امريكية اخذت منذ بضعة قرون ـ وخاصة منذ عام 1800 ـ تتعدى اطارها لتنتشر في مناطق الحضارات الاخرى ثم ان علومها وتكنولوجيتها قد اصبحت عالمية في حين ان آراءها وقيمها لم تحظ بنفس الدرجة من القبول . وبانهيار الامبريالية اي روح التوسع والاستعمار وظهور كثير من الدول المستقلة ، اخذت الحضارات القديمة تندمج لتعمل على اعادة تثبيت شخصيتها في هذا العالم التكنولوجي .

وهكذا فاننا نجد في عصر الطيارة النفاثة اليوم مظهرين متكاملين يتفقان وهذا الحوار :

1 ـ اختلاط عظيم بين البشر من اصول ثقافية متنوعة اي مختلفة .

2 ـ استعادة الشعور بضرورة تثبيت الهوية الشخصية عن طريق حضارات الشرق الاوسط وآسيا القديمة .

3 ـ وحتى ربما تشعر هذه الحضارات بان لها رسالة تهبها لبقية العالم .

وهكذا مع ان علمنا وتكنولوجيتنا يعمان الكرة الارضية فان التقدم ربما لا يتم الا على حساب تقلص مواهب او خصائص انسانية اخرى . وهنالك مبرر ضعيف يجعلنا نعتقد بأن حضارتنا في جميع

الاوجه الاخرى ما عدا العلوم والتكنولوجيا هي الافضل . فكما ان جميع الدول في الامم المتحدة هي على مستوى متقارب فهنالك ايضا مساواة في المضمار الثقافي بمعنى انه من الواجب علينا ان نتقدم امام الثقافات الاخرى ونحن مطاطئو الراس متاكدين ـ بكل تواضع ـ باننا ربما سنقع على شيء فيه ما نتعلمه من اولئك الذين اعتدنا ان ندعوهم ب ... Lesser breeds without the law

ان هذه الكلمات هي ولا شك معروفة لديكم ولكن كل ما في الامر هو اننا اخذنا نتحقق بان لها مشاكل اكاديمية وقد كان الباعث على تكوين لجنتي سكاربرو وهايتر عمليا ونفعيا كما ان ازدياد الاهتمام باللغات الاخرى كالروسية والصينية ، وربما يرجع الى التاكد بان هاتين اللغتين سيكون لهما شان عظيم من الناحية العملية في المستقبل . نعم ان هنالك مظهرا آخر يجب ان لا يعزب عن بالنا وهو انه كان علينا ان نعيش في عالم تلتقي فيه حضارات متنوعة على اساس المساواة ، فهل من المفيد ان تكون لدينا ثقافة مقصورة على الحضارة الاوروبية او الاورو ـ امريكية ؟ نعم ان الصحفيين والمعلقين على الاخبار لا يالون جهدا في اعطاء الرجل المتوسط بعض الافكار عن حقيقة الاحداث الجارية في آسيا وافريقيا وذكر بواعثها ، لكن الجامعة عليها ان تنظر الى ابعد من هذا وان تجابه بعض الدراسات العميقة في الحضارات غير الاوروبية ، ثم ان دراسة عميقة كهذه لا يجوز تركها لبعض المتحمسين لها او المتفردين بها بل يجب نشرها على نطاق واسع بين متخرجي الجامعات . ويظهر انه من المحتمل ان لا يعتبر الشخص في عام 2.000 مثقفا فعلا الا اذا كان قد حصل على بعض الدراسات في حضارة غير اوروبية تكون على مستوى الثقافة الجامعية ، وقد اصبح من الواجب على الادارات التي تعالج حضارات آسيا وافريقيا ولغاتها، ان تجهز الرجل المثقف في عصر « النفاثات » بشيء من التقدير العميق لتلك الحضارات .

وقد اصبح علينا ان نتطلع الى الوقت الذي سيصبح فيه تراث الحضاره الاسلامية مع تراث حضارة اسيوية اخرى يدرسان ويحترمان جنبا لجنب مع الحضارتين الافريقية والرومانية كدراسات كلاسيكية لعالم واحد .

وعندما يصبح مفهوم «الدراسات الكلاسيكية» اي القديمة على هذا الخط الواسع سيؤثر ولا شك على التربية المدرسية .

وها نحن نرى كيف ان بعض اللغات الشرقية الصعبة اصبحت لاسباب عملية ايضا ـ تعلم في بعض المدارس . هنالك مدرسة انجليزية واحدة لديها صفوف في اللغة الصينية في حين ان عددا عظيما من المدارس العالية في شرقي الولايات المتحدة تعلم اللغة العربية . وهنالك ، كما ذكرت ، اسباب تربوية لوقوع تقدم كهذا .

واني اود بعد هذه اللمحة التي عرضتها عن المناهمة الاسكوتلاندية الواسعة في الدراسات الاسلامية ان اوصي المديرين والمديرات بادخال العربية (او الصينية او السنسكريتية) في مدارسهم . فالعربية اسهل من الصينية وان نحوها يحوي شواذ اقل مما هي عليه في الفرنسية كما ان كتابتها ليست باصعب من الاختزال . لكن مفرداتها هي ولا شك فنية جدا نعم ان العربية في المدرسة لن تكون ذات فائدة عملية لكنها تكون مساهمة قيمة في الثقافة باوسع واعمق معانيها . وفي الختام فاني ارجو ان تلعب اسكوتلندا دورا هاما في العمل المستمر وذلك في جعل الاوروبيين والامريكان يبلغون درجة اعمق في تقدير القيم البعيدة المدى للحضارة الاسلامية .